ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان

أ. د محمد حامد
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فقد قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: "ثَلاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلامِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ" (علقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم، ووصله البيهقي في شعب الإيمان (٤٨)).

هذا أثر جميل مروي عن الصحابي الجليل أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنه موقوفًا عليه، ورُوي مرفوعًا لكنه معلول من حيث الصناعة الحديثية وحُكم أئمة العلل، ومع ذلك فقد قال الحافظ ابن حجر في الفتح أيضًا (٨٣/١): "إلا أن مثله لا يُقال بالرأي فهو في حكم المرفوع". وقال أيضًا عن هذا الأثر: "يشبه أن يكون كلام من أوتي جوامع الكلم، والله أعلم".

والمتأمل في هذا الأثر يجد أنه قد اشتمل على ثلاثة أمور عظيمة من استكملها فهذا دليل على قوة إيمانه وكماله، ولذا جاء في بعض ألفاظ هذا الأثر: "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمانَ" (شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي (١٧١٣)).

وفي الأثر ما يدل على أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص.

و"إنما كان من جمع الثلاث مستكملاً للإيمان؛ لأن مداره عليها لأن العبد إذا اتصف بالإنصاف لم يترك لمولاه حقًا واجبًا عليه إلا أداه ولم يترك شيئًا مما نهاه عنه إلا اجتنبه، وهذا يجمع أركان الإيمان وبذل السلام ويتضمن مكارم الأخلاق والتواضع وعدم الاحتقار ويحصل به التآلف والتحابب والإنفاق من الاقتار يتضمَّن غاية الكرم؛ لأنه إذا أنفق مع الاحتياج كان مع التوسع أكثر إنفاقًا والنفقة أعمّ من أن تكون على العيال واجبة ومندوبة أو على الضيف والزائر وكونه من الاقتار يستلزم الوثوق بالله والزهد في الدنيا وقصر الأمل وغير ذلك من مهمات الآخرة" (فتح الباري (٨٣/١)).

وقال العيني: "هذه الكلمات جامعة لخصال الإيمان كلها؛ لأنها إما مالية أو بدنية. فالإنفاق إشارة إلى المالية المتضمنة للوثوق بالله تعالى، والزيادة في الدنيا وقصر الأمل، ونحو ذلك. والبدنية إما مع الله تعالى، أي: التعظيم لأمر الله تعالى وهو الإنصاف، أو مع الناس وهو الشفقة على خلق الله تعالى، وهو بذل السلام الذي يتضمن مكارم الأخلاق والتواضع وعدم الاحتقار، ويحصل به التآلف والتحابب ونحو ذلك". عمدة القاري (١٩٨/١).

ودونك هذه الوقفات مع هذه الخصال الحميدة، والصفات الجليلة:

الخصلة الأولى: الإنصاف من النفس

إن الإنصاف من النفس يتضمَّن العدل ومعاملة غيرك بما تحب أن يعاملوك به، وألا تجامل نفسك بل تحاسبها وتعدل في الحكم لها أو عليها، فتكون مع الحق حيث كان، ولا تحتاج إلى

Upload by: altawhedmag.com

دعوى ونزاع.

إن المرء حين يُنْصف من نفسه لا يحتاج إلى مَن يحكم عليه، أو ينتزع منه حقًا لغيره؛ لأنه باذل للحقوق غير جاحد ولا مانع لها.

قد علمنا الله سبحانه في باب الشهادات أن نقوم بالعدل والقسط، وألا نجور أو نحيف ولو كان من أجل أقرب قريب، أو أعدى عدو؛ قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» (سورة النساء:١٣٥)، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (سورة المائدة:٨).

وحذَّرنا الله سبحانه من حال المطففين الذين لا يُنصفون الناس ولا يعاملونهم بما يحبّون أن يعاملوا به فقال عز وجل: «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (سورة المطففين:١-٦).

والواجب على المؤمن حتى يكمل إيمانه أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه، وأن ينصح له كما يحب أن يُنصح؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (صحيح البخاري حديث١٣، وصحيح مسلم حديث٤٥).

إن إنصاف الإنسان من نفسه يجعله يحاسب نفسه ويزنها بميزان العدل والصدق فينزل نفسه منزلتها كما ينزل الناس منازلهم، ولا يتعالى على خلق الله تعالى، ولا يرفع نفسه فوق قدرها بل ولا يقبل ذلك من غيره.

ورحم الله إبراهيم الحربي الذي كان إمامًا في العلم، رأسًا في الزهد، عارفًا بالفقه، حافظًا للحديث، ومميزًا لعلله، جمَّاعة للغة لما بلغه أن قومًا من الذين كانوا يجالسونه يُفضِّلونه على أحمد بن حنبل، فوقفهم على ذلك، فأقروا به، فقال: ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشبهه، ولا ألحق به في حال من أحواله، فأقسم بالله، لا أسمعكم شيئًا من العلم أبدًا، فلا تأتوني بعد يومكم. (سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٦٤/١٣).

وهذا من إنصافه لنفسه ومعرفته بمنزلة أهل الفضل.

وصفوة القول: إن هذه الخصلة (الإنصاف من النفس) على حد تعبير ابن رجب الحنبلي في الفتح (١٣٥/١) «من أعز الخصال، ومعناه: أن يعرف الإنسان الحق على نفسه ويوفيه من غير طلب».

الخصلة الثانية: بذل السلام للعالم

من صفات المؤمنين بذلهم السلام وإفشاؤه بين الناس، ونشره بين العالم دون تخصيصه بمن يعرفون؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ» (صحيح البخاري حديث١٢، وصحيح مسلم ٣٩).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (صحيح مسلم حديث٩٣).

وعن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وكان أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام» (أخرجه الترمذي في سننه(٢٤٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح).

وجمهور العلماء على أن هذه النصوص العامة

Upload by: altawhedmag.com

مخصوصة بالنهي الثابت عنه صلى الله عليه وسلم: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق، فاضطروه إلى أضيقه» (صحيح مسلم ح ٢١٦٧، وينظر: شرح مسلم للنووي(١٤/١٤٥)).

وفي بذل السلام دلالة على حسن الخلق، وسلامة الصدر، والتواضع، وعدم الترفع على الآخرين.

وإذا كان إفشاء السلام مندوبًا إليه، فإن رد السلام حق للمسلم على أخيه لا ينبغي أن يفرط فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «حق المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس» (صحيح البخاري (١٢٤٠)، وصحيح مسلم (٢١٦٤)).

الخصلة الثالثة: الإنفاق من الإقتار

من صفات المؤمنين كاملي الإيمان الإنفاق وقت الشدة والعسر والافتقار فما الظن بهم وقت الرخاء واليسر والغنى. والإقتار معناه الضيق وقلة المال، ومنه قوله سبحانه: «وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» (سورة البقرة: ٢٣٦)؛ فذكر المقتر في مقابلة الموسع، وذلك أن المقتر هو المُقل القليل المال.

ومعنى الإنفاق من الإقتار أي: الإنفاق مع الإقتار أو عنده. وهذا يدل على كرم النفس، واتصافها بالجود والسخاء، والزهد في الدنيا والثقة فيما عند الله، وقوة اليقين في أن الخلف منه سبحانه وتعالى تصديقًا بقول الله عز وجل: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (سورة سبأ: ٣٩).

ومن المعلوم أن الإنسان وقت شدته وعسره يضنّ بماله ويكون شحيحًا به، فإذا جاد به في هذه الحال فما الظن به وقت اليسر والسعة؟ وهذا هو المقصود بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبق درهم مئة ألف درهم»، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟! قال: «رجل له مال كثير، أخذ من عُرْضه مئة ألف درهم؛ تصدّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان؛ فأخذ أحدهما فتصدّق به» (أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٣٤٧)، والحاكم في مستدركه(١٥١٩) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». وقد بوّب له ابن حبان رحمه الله بباب: ذكر البيان بأن صدقة القليل من المال اليسير أفضل من صدقة الكثير من المال الوافر. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أيّ الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان» (صحيح البخاري (١٤١٩)، وصحيح مسلم (١٠٣٢)).

ولا ينبغي أن يُفهَم من هذا أن الإنفاق من الإقتار يُراد منه أن يضيع نفقة واجبة عليه، أو يقدم نفلًا وتطوعًا على فرض وواجب؛ فهذا غير مقصود. بل عليه أن يبدأ بالأولى والأحق في النفقة ممن تلزمهم نفقته، وهذا أعظم أجرًا، وأعلى ثوابًا.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك» (أخرجه مسلم في صحيحه (٩٩٥)).

وحاصل الأمر أن هذه الخصال تنبئ عن نفس شريفة، وهمة عالية، واستقامة على الطاعة ولزوم لفعل الخير.

جعلنا الله من أهل الاستقامة ولزوم الطاعة، ورزقنا العلم النافع والعمل الصالح، والحمد لله رب العالمين.

Upload by: altawhedmag.com